Route Educational & Social Science Journal

Volume 6(5); April 2019

Artical History

Received/ Geliş	Accepted/ Kabul	Available Online/yayınlanma
13.03. 2019	12.04.2019	30.04.2019

النهج اللغوي في بيان إعجاز القرآن عند الخطابي

دراسة تحليلية في كتابه بيان إعجاز القرآن

الدكتور / خالد بن أحمد الأكوع

الأستاذ المساعد بجامعة أم القرى كلية اللغة العربية

الملخص

الموضوع : النهج اللغوي في بيان إعجاز القرآن عند الخطابي ، دراسة تحليلية في كتابه بيان إعجاز القرآن .

يسعى هذا البحث إلى استنباط النهج اللغوي الذي اعتمده الإمام الخطابي في بيان وجوه الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم والرد على الطاعنين فيه من جهة بعض ألفاظه ومعانيه وأسلوبه وتراكيبه ويهدف إلى تقنين النهج اللغوي الذي سار عليه الخطابي في كتابه بيان إعجاز القرآن ، ليسهل الأخذ به ، والعمل بمقتضاه ، والسير على منواله ، وذلك للحاجة إليه لتجدد إثارة أعداء الإسلام الشبه عبر العصور ومحاولتهم الإلباس على الناس لصدهم عن دين الله عز وجل ومعجزة نبيه الخالدة ، كما أن فساد الذوق اللغوي يؤدي إلى توهم الخلل وعدم الدقة فيما يجهل من أساليبه الفصيحة ، ولكونها قضية متجددة لا يزال أعداء الإسلام يثيرون الشبه ، ويتلمسون المثالب بأفهام كليلة وأهداف خبيثة ، فجاء بحثنا لاستنباط النهج اللغوي الذي سلكه المتقدم ليأخذ به المتأخر .

وتكون البحث من ثلاث فصول :

1 – المقدمة وفيها بيان المنهج العلمي الذي سار عليه الخطابي .

2 – بيان الأسباب اللغوية لإعجاز القرآن من جهة بلاغته ، ومن جهة ألفاظه ومعانيه ونظمه .

3 – الجانب التطبيقي للنهج اللغوي في الرد على شبه الطاعنين في إعجاز القرآن .

Abstract

The Linguistic Approach to Clarify the Statement of the miracle of the Holly Qur'an According to Imam Al-Khattabi :

Analytical study in his book entitled (the statement of the miracle of the Holly Qur'an)

This research aims at investigating the linguistic approach adopted by Imam Al-Khattabi to explain the linguistic miracle of the Holy Qur'an and respond to the appellants who doubt it and do not agree with the real meanings, style, and structures of some statements of the Holly Qur'an.

It also aims to codify the linguistic approach that was followed by Al-Khattabi in his book "The Miracle of the Holly Qur'an" which is considered a perfect example to follow because we need such book to defeat the doubtfulness against Qur'an which is repeatedly renewed throughout the ages by the enemies of Islam, who are trying to convince people to repel the religion of Allah Almighty and to reject the message of the prophet *(Peace be upon him).* Also misunderstanding and the corruption of the language taste lead to the illusion of imbalance and inaccuracy in ignorance of the methods and the real meanings of some expressions in the Holly Qur'an. The enemies of Islam continue to evoke resemblance, and to grasp the flaws with vague understanding and malicious aims. Our research is to devise the linguistic approach taken by the late to be adopted by the new generation.

The research consists of three chapters:

1 - Introduction and the statement of the scientific method that was followed by Al-Khattabi.

2 – Clarification of the linguistic reasons for the miracle of the Holly Qur'an on the one hand, and its words and meanings and metaphorical expression on the other hand.

3 - The applicable side of the linguistic approach in response to the semi doubts spread against the miracle of the Holly Qur'an.

May Allah (SWT) bless and help us all

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً مباركاً كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، وبعد ..

وقف الباحث على بعض وسائل الإعلام المفتوحة التي تمكن من منابرها غير المختصين ومن يهدف إلى الظهور ويسوق إلى الضلال ويشوش الأفكار بالطعن في كتاب الله ومعجزة رسوله بغير هدى أو كتاب مبين ، فمنهم من يفاضل بين القرآن وكتاب آخر يجلّه ويحكم له بالأفضلية على كتاب الله ، ومنهم من يثير الشبه حول بعض الألفاظ والمعاني القرآنية للصد عنه .

ومن هنا جاءت فكرة البحث لتحصين الأمة بالعلم والمعرفة حول بيان إعجاز القرآن والرد على شبه الطاعنين فيه ، وهي شبه قديمة متجددة تناولها علماء السلف بالرد والتفنيد وبيان وجه الحق فيها وفق منهج علمي التزمه غالبيتهم وإن لم يصرحوا به ويبينوا طريقته مع رسوخه في عقولهم .

فعمد الباحث مستعيناً بالله عز وجل إلى عمل مشروع بحثي يهدف إلى استنباط النهج اللغوي من ثلاثة كتب ألفت في بيان إعجاز القرآن والرد على الطاعنين لعلماء يمثلون فروع اللغة المتنوعة وهم على التوالي : الخطابي في اللغة والحديث ، والرماني في النحو والصرف ، والجرجاني في علوم البلاغة .

وقد دعمت مشكورة جامعة أم القرى هذا المشروع البحثي من خلال عمادة البحث العلمي خدمة للعلم وتحقيقاً لأهداف المملكة العربية السعودية في خدمة الإسلام والمسلمين والدفاع عن الدين الحنيف خاصة القرآن الكريم ، وفق منهج علمي في الرد على الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام وبعض الجهلة من المعاصرين من طعون في لغة القرآن .

ويمثل عنوان البحث فصلاً من فصول هذا المشروع ، ويهدف إلى استنباط النهج اللغوي عند الخطابي في كتابه بيان إعجاز القرآن ، للأخذ به بعد تقنينه ورسم حدوده ، وبيان طريقته ، تمهيداً لتطبيقه من قبل كل من يتصدى للرد على شبه الطاعنين المعاصرين لتجدد إثارتها من قبلهم بين حين وآخر .

منهج البحث : اعتمد الباحث على المنهج الوصفي التحليلي لكتاب بيان إعجاز القرآن للإمام أبي سليمان حمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الخطابي (319 - 388 هـ) وهو المصدر الأساسي لهذا البحث .

محتويات الدراسة

- مقدمة وخاتمة .

1 - الفصل الأول : المنهج العلمي في بيان إعجاز القرآن .

2 - الفصل الثاني : الأسباب اللغوية لإعجاز القرآن :

أ/ الإعجاز من جهة بلاغة القرآن .

ب/ الإعجاز من جهة لغة القرآن : ألفاظه ومعانيه ونظمه .

جـ/ الارتباط بين جهتي الإعجاز .

3 - الفصل الثالث : الجانب التطبيقي للنهج اللغوي في الرد على شبه الطاعنين :

أ/ شبه الطاعنين في بعض ألفاظ القرآن واستعمالها والرد عليها .

ب/ شبه الطاعنين في بعض تراكيب القرآن لتوهمهم اختلالها ، والرد عليها .

ب/ شبه الطاعنين في تبويب موضوعات القرآن والرد عليها .

د/ شبه الطاعنين باحتمال وقوع المعارضة وتحققها ، وبيان ضوابط المعارضة .

الخاتمة وفيها النتائج .

وبعد حمد الله وشكره والثناء عليه عز وجل ، أتقدم بالشكر والتقدير لعمادة البحث العلمي بجامعة أم القرى التي دعمت هذا المشروع البحثي خدمة للعلم وتحقيقاً لأهداف المملكة العربية السعودية في خدمة الإسلام والدفاع عن ثوابته بالعلم والمال والنفس ونسأله عز وجل التوفيق والسداد في القول والعمل .

الفصل الأول

المنهج العلمي في بيان إعجاز القرآن عند الخطابي :

1- إثبات الإعجاز والاستدلال عليه بواقع عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله مع وجود الدافع عند كفارهم لدحض النبوة .

فقال : (والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه ، وذلك أن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه .

وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم مسفهاً آراءهم وأحلامهم ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب .

وقد كان قومه قريش موصنين برزانة الأحلام ، ووفارة العقول ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المغلقون ، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد ...)[1] .

2- نفى أن تكون الصرفة سبباً في إعجاز القرآن لتعارضها مع مبدأ العمل والتكلف الذي يظهر به العجز .

قال : (وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة ؛ أي صرف الهم عن المعارضة ، وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات)[2] .

وضرب للصرفة مثالاً من قولهم : (فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمان النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له ما آيتك ؟ فقال آيتي أن أحرك يدي أو أمد رجلي ، ولا يمكن أحد منكم أن يفعل فعلي ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه)[3] .

والخطابي بخلاف القول بالصرفة وإن كان يرى أنها وجه قريب ، إذ يقول : وهذا أيضاً وجه قريب إلا أن دلالة

---

(1) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي (21 ، 22) من كتاب (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، طه ، القاهرة .

(2) المرجع السابق (22) .

(3) المرجع السابق ص (23) .

الآية تشهد بخلافه ، وهي قوله سبحانه : ﴿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ﴾ [الإسراء : 88] .

فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاجتهاد ، والمعنى في الصرفه التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم)[1] .

3- استبعد وجوه الإعجاز غير اللغوية لعدم وجودها في كل سورة ، والتحدي طالبهم لو بسورة .

قال زعمت طائفة أن إعجازه فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ونحوها من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع أكوانها قلت : ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الوجود في كل سورة من سور القرآن وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها ، فقال : ﴿ ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ﴾ (البقرة : 23))[2] .

4- استبعد أقوال بعض أهل النظر المبهمة الغامضة في كيفيتها وقياسها وأدلتها فجرت على التقليد وغلبة الظن .

فقال : (وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغة ، وعن المعنى الذي يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لا يمكن تحديده .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفي من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال إحيل به على إبهام)[3] .

(1) المرجع السابق ص (23) .
(2) المرجع السابق ص (24) .
(3) المرجع السابق (24 ، 25) .

5- المنهج الذي اتبعه والواجب اتباعه هو التعمق والاستقراء والبحث عن العلل والأسباب والاستدلال عليها وامتحانها ، فلا يأخذ إلا بمعنى مطلوب من ذاته ، يثبت على النظر أو يستقيم في القياس ويطرد على المعايير .

إذ قال في سياق رده على الأقوال العامة الغامضة في أدلتها وكيفية إعجاز القرآن من جهة البلاغة ، التي قال بها أكثر أهل النظر تقليداً دون تحقيق ، قال :

(فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السِّمة دون البحث عن باطن العلّة ، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة ... أمر لابد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف .

وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه وأسبابه الثابتة منه ، فلم نجد شيئاً منها – يقصد استدلالاتهم الغامضة – يثبت على النظر ، أو يستقيم في القياس ، ويطرد على المعايير ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ، ومستقصى من جهة نفسه)[1] .

(1) بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ص (25 ، 26) .

الفصل الثاني

الأسباب اللغوية لإعجاز القرآن

بين الأسباب اللغوية لإعجاز القرآن من جهة بلاغته ومن جهة لغته ألفاظه ومعانيه ونظمه مع الارتباط بين الجهتين من حيث الأداة والأثر .

أولاً : الإعجاز من جهة بلاغة القرآن :

ذكر أن علّة وسبب إعجاز القرآن وانحصار الأقوال عن معارضته وانقطاع الأطماع عنها ، اشتمال بلاغات القرآن على أقسام الكلام المحمود دون الهجين المذموم ، فجمعت بين صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما كالمتضادين لا يجتمعان في غيره .

فقال : (فدل النظر وشاهد العبر على أنّ العلَّة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز الطلقُ الرسلُ .

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة ، فالقسم الأوّل أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه .

فحازت بلاغاتُ القرآن من كلّ قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من الأنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة ، وهما على الإنفراد في نعوتها كالمتضادين ، لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمة مع نبوكل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره ليكون آية بينه لنبيه ، ودلالة له على صحة ما دعا إليه من أمر دينه)[1] .

ثانياً : الإعجاز من جهة لغة القرآن : ألفاظه ومعانيه ونظمه :

ذكر أنّ القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني .

وعزى الخطابي عجز البشر عند معارضته إلى عدم إحاطة علومهم بجميع وجوه هذه الأركان فقال : (وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكتمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض .

(1) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص (25) .

فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير الذي أحاط بكل شيء علًما ، وأحصى كل شيء عدًا ، فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني)[1] .

الارتباط بين جهتي الإعجاز :

بين علاقة الارتباط بين جهتي الإعجاز وهي علاقة الأداة بالأثر ، فالخلل أو عدم الدقة في الاختيارات اللغوية ينجم عنه أحد أمرين : إما تبدل المعنى وفساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق وسقوط البلاغة .

ومثل لذلك بالألفاظ المتقاربة التي يعتقد أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، ويكثر فيها التبديل أو عدم الدقة في الاختيارات .

وبين النهج اللغوي في التفريق بين الألفاظ المتقاربة المعاني لضمان فصاحتها وصحة اختيارها في مكانها الأنسب لها ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا يشتركان في بعضها ، وسرد لذلك مجموعة من الأمثلة وبين النهج في اللغوي في التفريق بينها .

طريق التفريق بين الألفاظ متقاربة المعاني يكون بأمرين :

1 – التفريق بالإتيان بالضد . مثاله (عرف وعلم يشتركان في الإثبات الذي يرتفع معه الجهل وضد العلم الجهل وضد المعرفة النكرة) .

2 – التفريق بالتخصيص والتعميم . مثاله (الصفة والنعت يشتركان في قولهم زيد عاقل كريم) فهما صفة ونعت ويختص النعت بالصفات التي لا تزول ولا تتبدل .

(1) المرجع السابق ص (26 ، 27) .

الفصل الثالث

الجانب التطبيقي للنهج اللغوي في الرد على شبه الطاعنين في إعجاز القرآن

الخطابي وظف علوم العربية في الرد على شبه المنكرين لإعجاز القرآن ، فكان من منهجه في بيان إعجاز القرآن الرد على شبه منكرين أو طاعنين توهموا الخلل في بعض ألفاظ القرآن وتراكيبه نتيجة جهلهم بسنن العرب في كلامها ، ولا يزال أمثالهم يظهرون بين فترة وأخرى هدفهم الإلباس والطعن عن جهل أو عداوة للإسلام أو افتراض الاعتراض لبيان الإعجاز .

وذكر الخطابي أنَّ منشأ هذه الشبه والوهم أنهم قاسوا ما عليه عربيتهم وشعراء زمانهم في عصر متأخر عن الاحتجاج وبعد فساد السليقة على ما كانت عليه العربية عند نزول القرآن فجهلوا كثيراً من الكلام فأنكروه وزعموا لحنه ؛ لأنهم لم يتبحروا في كلام العرب وأساليبه الواسعة ولم يقفوا على مذاهبه القديمة التي خلت منها لغة المحدثين ، ولو تعمقوا في العربية لعلموه ولم ينكروه أو يطعنوا فيه[1] .

وذكر أنه نزل على قوم عُرفوا بالفصاحة ووصفوا بأنهم لدد في الخصام وهم حجة على غيرهم ، فركبوا الصعب في محاربته وتركوا معارضته لعجزهم عن ذلك ، وجاء في إحدى نقوله : (اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا ، وعليه مطعناً ، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به ، وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت)[2] .

أولاً : شبه الطاعنين في دلالة بعض ألفاظ القرآن واستعمالها ، ورد الخطابي عليها .

1- قلّة الألفاظ الغريبة في القرآن بالنسبة للواضحة المستعملة :

- المنكر : أنكروا أن يكون القرآن معجزاً القلّة الألفاظ الغريبة المشكلة فيه بالنسبة للواضحة المستعملة .

فقالوا : (وحظ الغريب المشكل منه إلى الكثير من واضحة قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام)[3] .

رد الخطابي :

ذكر أن كثرة الألفاظ الغريبة ليست من صفات البلاغة ، وإنما القدر المنتخب من الغريب لغرض وهدف

(1) ينظر بيان إعجاز القرآن (45 إلى 47) .
(2) السابق (47) .
(3) المرجع السابق ص (35) .

بلاغي لا يحققه اللفظ الواضح المستعمل ، وهو ما جاء منه في القرآن الكريم .

فقال :

(وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه في حد البلاغة ، وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس ، والأجلاف من حفاة العرب الذين يذهبون مذاهب الفجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخيّر له ، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه .

وإنما المختار منه النمط الأقصد الذي جاء به القرآن ، وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة)[1] .

2- عدم الدقة في استعمال الدلالة العامة والخاصة .

- المنكر : شككوا في دقه دلالة بعض الألفاظ ، وأنها لم تقع في أفصح وجوه البيان وأحسنها ؛ لأنها جاءت باللفظ العام دون الخاص كقوله تعالى : ﴿ ج ج ﴾ (يوسف : 17) .

فقالوا : (وإنما يستعمل مثل هذا في فعل السباع خصوصاً (الافتراس) ، يقال : افترسه السبعُ ، هذا هو المختار الفصيح في معناه فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع) .

رد الخطابي :

استخدم المعنى المعجمي ودلالة السياق في الرد على هذه الشبهة وترجيح اختيار اللفظ العام وفصاحته لمناسبته المقام .

فقال : (إن القول في وجود ألفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذي وصفناه صحيح ، لا ينكره إلا جاهل أو معاند .

فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما دعوا على الذئب أنه أكله أكلاً فأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم بأثر باق منه ..)[2] .

وذكر أن الأكل شائع الاستعمال في الذئب وغيره من السباع واستدل عليه من كلام العرب وشعرهم ، وحكى عن ابن السكيت في ألفاظ العرب قولهم : (أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامور (الوعاء والنفس) ، وقال بعضهم شعرائهم .

(1) المرجع السابق (36 ، 37) .
(2) المرجع السابق (37 ، 38) .

فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يوماً دماً فهو آكلهُ)[1]

واستمر في الاستدلال له ثم توسع في بيان استعماله المجازي للدلالة على اللدغ والعقر عند العرب .

2- توجيه دلالة اللفظ المشكل :

- وكقوله : ﴿ ﭽ ﭾ ﭿ ﴾ (يوسف : 65) .

المنكر : (قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : كلت لزيد كيلاً يسيراً إلا أن يعني به أنه يسير العدد والكمية)[2] .

رد الخطابي :

(وأما قوله سبحانه : ﴿ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﴾ (يوسف : 65) فإن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل ، والمصادر توضع موضع الأسماء ، كقولهم : هذا درهم ضرب الأمير ، وهذا توب نسج اليمن ، أن : مضروب الأمير ، ونسيج اليمن .

والمعنى أنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صَحِبنا أخونا حمل بعير ، فإنه كان لكل رأس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، فكان ذلك في السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إلا من قبله، فقيل على هذا المعنى (ذلك كيل يسير) أي : متيسر لنا إذا تسببنا إلى ذلك باستصحاب أخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأمور كالعسير فيما يتعذر منها ، ولذلك قيل يُسِّير الرجل ، إذا نُتِجت مواشيه وكثر أولادها ، قال الشاعر :

يُعُد الفتى من نفسه كُلَّ ليلة أصاب غناها من صديق مُيسَر)[3]

وذكر الخطابي وجوهاً أخرى لمعنى يسير في الآية وهو السريع الذي لا حبس فيه ، وذلك أن غيرهم يحبس عند الباب ويقدمهم نبي الله يوسف على غيرهم ، كما ذكر وجهاً آخر لمعنى الكيل وهو أنبهنا بمعنى السعر واحتج عليه من شعر العرب[4] .

ونلاحظ هنا أن الخطابي وجه معنى اللفظ على ما بدل عليه وبخلاف ما توهموه في معنى الآية ، إذ توهموا أن

(1) المرجع السابق (41) .
(2) المرجع السابق ص (38) .
(3) المرجع السابق ص (42) .
(4) ينظر ص (43) .

الكيل يقال فيه قليل أو كثير لا يسير وعسير لأنهم اجتزؤوه من السياق ، ووجه هو على أنه متيسر لهم الحصول عليه وسهلٌ عليهم ، وذكر وجوهاً أخرى يحتملها معنى الآية ويبطل زعمهم .

4- بيان الفروق والمعاني الزائدة بين الألفاظ المتقاربة التي يتوهم ترادفها :

المنكر – وكقوله : ﴿ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﴾ (ص : 6) والمشي في هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك : أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن) [1] .

رد الخطابي : بيّن الفروق والمعاني الزائدة بين الألفاظ المتقاربة ، فقال : (وقول من زعم أنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أبلغ ، فليس الأمر على ما زعمه ، بل المشي في هذا المحل أولى وأشبه بالمعنى ، وذلك لأنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة في غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأمر الأوّل ، وذلك أشبه بالثبات والصبر المأمور به في قوله : (وأصبروا على آلهتكم) والمعنى كأنهم قالوا : امشوا على هيئتكم وإلى مهوى أموركم ولا تعرّجوا على قوله ولا تبالوا به .

وفي قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس في قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه .

وقيل : بل المشي هاهنا معناه التوفر في العدد والاجتماع للنصرة دون المشي الذي هو نقل الأقدام ، من قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده ، وأنشدوا   والشاة لا تمشي على الهَمَلّع

أي لا يكثر نتاجها ، والهملع : الذئب) [2] .

ونلحظ أن الخطابي استخدم التحليل النفسي لموقف القوم من نبيهم في ترجيح اللفظ القرآني على ما ادعوه ، وهو منهج تجلى عند علماء البلاغة فيما بعد ، وحتى يقطع عليهم الجدل ذكر وجهاً آخر يحتمله اللفظ وهو التوفر في العدد والاجتماع للنصره .

5- بيان وجه الاستعمال المجازي دون الحقيقي :

المنكر وكقوله : ﴿ ﯬ ﯭ ﯮ ﴾ (الحاقة : 29) وإنما يستعمل لفظ الهلاك في الأعيان والأشخاص ، كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما، فأما الأمور التي هي معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها ، ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحاً غير مستحسن)[3] .

---

(1) المرجع السابق ص (38) .
(2) المرجع السابق ص (43 ، 44) .
(3) المرجع السابق ص (38) .

(أما الخطابي : أنَّ الهلاك لا يستعمل إلا في تلف الأعيان فإنهم ما زادوا على أن عابوا أفصح الكلام وأبلغه ، وقد تكون الاستعارة في بعض المواضع أبلغ من الحقيقة ، كقوله عز وجل : ﴿ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ﴾ (يس : 37) والسلخ هاهنا مستعار وهو أبلغ منه لو قال نخرج منه النهار وإن كان هو الحقيقة ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ ٹ ٹ ٹ ﴾ هو أبلغ من قوله من فلزِّ الأرض ، ومعناه المبالغة فيما أمر به حتى يؤثر في النفوس والقلوب تأثير الصدع في الزجاج ونحوه .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ ئې ئى ﴾ وذلك أن الذهاب قد يكون على مراحدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى ، وقد قيل إن معنى السلطان هاهنا الحجة والبرهان) [1] وهنا بين الخطابي وجه الاستعارة في اللفظة وأنها ليست على الحقيقة كما توهموه ، واستطرد في أمثلتها في آيات أخرى ليبين لهم أن الاستعمال الحجازي يصبغ معانٍ إضافية لا يقوم بكمال معناها اللفظ الحقيقي .

6- اختيار المعنى الأنسب من المشترك اللفظي :

- وكقوله سبحانه : ﴿ ئے ئے ﴾

المنكر - (وأنت لا تسمع فصيحاً يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أن شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه)[2] .

رد الخطابي :

(وأما قوله سبحانه ﴿ ئے ئے ﴾ وأن الشديد معناه هاهنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشد أي نجيل ، قال طرفة :

أرى الموت يعتام النفوس ويصطفي عقيلة مَال الفاحش المتشدد واللام في قوله (لحب الخير) بمعنى لأجل حب الخير وهو المال لبخيل) [3] .

ونلحظ هنا أن الخطابي اختار المعنى الأنسب للسياق من معاني كلمة شديد وهو البخيل ومعه يصح التركيب ، ولا تحتاج الجملة إلى تقرير كما لو فسر بمعنى قوي فإنه يقدر بعده (الحب) أي : لشديد الحب ، والأولى عدم التقدير وليس الأمر كما زعموا من أنه غير فصيح ويختل معه التركيب فهم فسروه بمعنى قوي .

7- بيان وجه استعمال اللفظ العام ذي المعنى الجامع :

(1) المرجع السابق ص (44) .
(2) المرجع السابق ص (38) .
(3) السابق ص (44) .

وكقوله تعالى : ﴿ ذ ث ث ﴾ (المؤمنون : 4) .

المنكر (ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، وإنما يقال : زكى الرجل ماله وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام)[1] .

رد الخطابي :

(وقوله : إن المستعمل في الزكاة المعروف لها من الألفاظ ، كالأداء والإيتاء والإعطاء ، ونحوها كقولك : أدى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاها ، أو زكى ماله، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك في كلام أحد .

فالجواب أن هذه العبارات لا تستوى في مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة في أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداء الزكاة فعلاً لهم مضافاً إليهم يعرفون به ، فهم له فاعلون .

وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهي إذا أولى العبارات وأبلغها في هذا المعنى .

وقد قيل : إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح الزاكي ، يريد – والله أعلم – والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الزاكية فاعلون)[2] .

ونلحظ هنا أنَّ الخطابي رجّح اللفظ القرآني لإضافته معنى المبالغة بعموم اللفظ (فاعلون) في هذه الآية ، أما الأداء والإيتاء فهما في القرآن عند إرادة أدائها فحسب .

ومع عموم اللفظ صح الأخذ بالقول الآخر وهو تفسير الزكاة هنا بالعمل الزاكي ، وأجاز الجمع بينهما ؛ لأن تزكية المال من العمل الصالح الزاكي ، ولذلك ذكره الخطابي وجها آخر يبطل زعمهم .

8- بيان الخطأ أو تصحيح الفهم بتوجيه معنى الدلالة :

وكقوله سبحانه : ﴿ پ پ پ پ ﴾ (مريم : 96) .

المنكر – (ومن الذي يقول : جعلت لفلان ودًّا وحباً بمعنى أحببته ؟ وإنما يقول وددته وأحببته ، أو بذلت له ودي ، أو نحو ذلك من القول)[3] .

رد الخطابي :

(وأما قوله عز وجل ﴿ پ پ پ پ ﴾ وإنكارهم قول من يقول: جعلت لفلان ودًّا بمعنى وددته فإنهم قد

(1) السابق ص (38) .
(2) السابق ص (44 ، 45) .
(3) المرجع السابق ص (38 ، 39) .

غلطوا في تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم في قلوب المؤمنين ، أي يخلق لهم في صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل : ﴿ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ (النحل : 72) أي : خلق)[1] .

ونلحظ هنا أن الخطابي أدرك أنهم غلطوا بسبب اعتقادهم أن فاعل الود هو الله عز وجل من حيث المعنى ، أي أن الله أحبهم ، فقام بتوجيه المعنى وتصحيح فهمهم بأن الله سيجعل الناس يحبونهم ، أي أن فاعل الود من حيث المعنى هم البشر ، وهو فصيح عال .

فجاءت وداً هنا بمعنى مودة .

(1) المرجع السابق ص (45) .

ثانياً : شبه الطاعنين في بعض تراكيب القرآن لتوهمهم اختلالها ، والرد عليها :

1- بيان اختلاف اللغات في التعدي واللزوم لبعض الأفعال :

- المنكر : طعنوا في استعمال الفعل المتعدي لازما في قوله سبحانه ﴿ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ﴾ (النحل : 72) فقالوا : (وإنما هو ردفه يردفه من غير إدغام [إدخال] اللام)[1] .

- رد الخطابي :

بين أن في استعمال الفعل لغتين فصيحتين ، فيستعمل لازماً ومتعدياً ، فقال : (وأما قوله عز وجل : ﴿ ۈ ۈ ﴾ فإنهم لغتان فصيحتان : ردفته ، وردفت له ، كما تقول نصحته ونصحت به)[2] .

2- بيان العلة من حروف الزيادة :

المنكر : طعنوا في مجيء حروف الزيادة في آيتين ولا موضع لها ولا تجوز البتة بزعمهم ، فقالوا : (وكقوله سبحانه : ﴿ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ﴾ (الحج : 25) ، وكقوله سبحانه : ﴿ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ﴾ (الأحقاف : 32) فأدخل الباء في قوله بإلحاد وفي قوله بقادر ، وهي لا موضع لها هاهنا ، ولو قيل : ومن يرد فيه إلحاداً بظلم ، وقيل : قادر على أن يحيي الموتى ، كان كلاماً صحيحاً لا يشكل معناه ولا يشتبه ، ولو جاز إدخال الباء في قوله : بقادر لجاز أن يقال : ظننت أن زيداً بخارج وهذا غير جائز البتة)[3] .

رد الخطابي :

ذكر الخطابي أنّ طعنهم ناجم من جهلهم بكلام العرب الأول الذي نزل به القرآن ، فأنكروا أشياء فصيحة قلت فيها لغة المتأخرين .

فقال : فهذا وما أشبه زيادات حروف في مواضع من الكلام وحذف حروف في أماكن أخر منها : إنما جاءت على نهج لغتهم الأوّل قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم ، فافهم هذا الباب فإنك إذا حكمت معرفته استفدت علماً كثيراً ، وزال عنك ريب القلب وتخلصت من شغب الخصم .

ونعود إلى الجواب ، فتقول : قد قيل إن الباء زائدة ، والمعنى : من يرد فيه إلحاداً بظلم ، والباء قد تزاد في مواضع من الكلام ولا يتغير المعنى .

كقولك : أخذت الشيء وأخذت به ، وكقول الشاعر :

---

(1) المرجع السابق ص (39) .
(2) المرجع السابق ص (45) .
(3) المرجع السابق ص (39) .

نضرب بالسيف ونرجُوا بالفرج

وكذلك قوله سبحانه : (ولم يَعْيَ بخلقهم بقادر ...) المعنى : قادر على أن يحيي الموتى ، قالوا : وإنما ندخل الباء في هذا المعنى مع حروف الجحد كقوله : ﴿ ﮏ ﮐ ﮑ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﴾ (القيامة : 40) ، وقد ضارع ألم في معنى الجحد أليس ، فألحق بحكمه ، قالوا : ودخول الباء إنما هو توكيد الكلام ، وأنشد الفراء في مثل هذه الباء :

فما رجعت بخائبة رِكابٌ حكيم بن المسبب منتهاها

قال : فأدخل الباء ، قال : وتقول : ما أظنك بقائم ، فإذا احذفت الباء نصبت الذي كانت فيه بما تعمل فيه من الفعل)[1] .

3- بيان العائد في استعمال بعض الأدوات الرابطة أو تقديره :

المنكر : طعنوا في استعمال (كما) التي للتشبيه دون أن يتقدم في الكلام ما يشبه أوله آخره بزعمهم ، فقالوا : (ربما يعرض فيه من سوء التأليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به ، قوله سبحانه : ﴿ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ﴾ (الأنفال : 5) عقيب قوله : ﴿ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﴾ (الأنفال : 4) ، و(كما) في تشبيه شيء بشيء : ولم يتقدم من أوّل الكلام ما يشبه به ما تأخر منه .

وكقوله سبحانه : ﴿ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﭑ ﭒ ﭓ ﴾ الحجر : 89 - 91) ، وقوله تعالى : ﴿ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﴾ (البقرة : 151)[2] .

رد الخطابي :

(وأما قوله سبحانه : ﴿ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﴾ [الأنفال : 5] ، ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأويل ، كلها محتملة ، أيها اعتمدت وعلقت عليه الكاف حملها وصح الكتاب عليه .

1- قال بعضهم إن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ...أي كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم في المخرج معك وقد حمدوا عاقبته فليصبروا في هذا .

---

(1) المرجع السابق (48 / 49) .

(2) المرجع السابق ص (39) .

2- وقيل معناه : أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك بالحق ، كقوله : ﴿ ے ۓ ۓ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﴾ (الذاريات : 23) .

2- وقيل : (كما) صفة لفعل مضمر ، وأن تأويله : افعل في الغنائم كما فعلت في الخروج إلى بدر وإن كان كره القوم ذلك .

كقوله سبحانه : ﴿ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﴾ معناه : كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك أتم نعمتي عليكم) .

وأما قوله سبحانه : (كما أنزلنا على لمقتسمين فإن فيه محذوف يدل ظاهر الكلام عليه ، كأنه قال : أنا النذير المبين عذاب أو عقوبة ، كما أنزلنا : أي مثل ما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عظين)[1] .

ثم اعترض الخطابي بلسانهم على جوابه بنفسه ، فقال : (فإن قيل : أوليس وإن توجه الكلام وصح على الوجه الذي ذكرتموه ، فقد دخله من الانتشار بتفرق أجزائه وتباعد ما بين فصوله ما أخرجه من حسن النظم الذي وصفتموه به ؟

قيل : لا ، وذلك لأنه لم يدخل بينه وبين أوّل ما يتصل به ... وكل مالا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام)[2] .

ونلحظ من جواب الخطابي أن المعترضين توهمو عدم وجود المشبه ، فقام ببيان ركني التشبه وقدر محذوفا في بعض الأقوال وبين أنَّ ظاهر الكلام دلَّ عليه .

4- بيان الجملة الاعتراضية ومناسبتها للسياق .

طعنوا في سياق وقعت فيه جملة اعتراضية لم يدركوا مناسبتها

فقالوا : (فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﴾ (القيامة : 16) وقد اكتنفه من جانبيه قوله سبحانه : ﴿ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﴾ (القيامة : 14 - 15) وقوله : ﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﴾ (القيامة : 20 ، 21) ولا مناسبة بين الكلامين اللذين اعتوراه)[3].

رد الخطابي :

(قيل هنا عارض من حال دعت الحاجة إلى ذكره ، لم يجز تركه ولا تأخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيشتغل عن ويقبل على شيء وآخر - أقبل عليّ واسمع ما أقول ، وافهم عني ، ونحو هذا من

---

(1) المرجع السابق ص (49 ، 50) .
(2) المرجع السابق ص (50 ، 51) .
(3) المرجع السابق ص (51) وص (40) .

الكلام ، ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجاً عن الكلام الأول قاطعاً له ، إنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعبداً له) .

ثم ذكر سبب نزولها ووقوعها في السياق ، فقال : (وكان رسول الله ﷺ أيضاً لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا أنزل الوحي وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به ، فقيل له : تفهم ما يوحي إليك ولا تتقلبه بلسانك ، فإنا نجمعه لك ونحفظه عليك) [1] .

وهنا نلحظ أن الخطابي ، اعتمد على سبب النزول في الرد على اعتراض لغوي، لأنه يفسر مناسبه ووقوعها في السياق .

5- بيان مواضع البلاغة في الحذف والتكرار .

1- المنكر :

طعنوا في مجيء الحذف والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ، ثم قد يوجد عكسه التكرار في القرآن الكريم .

فقالوا : (وقد يوجد في القرآن الحذف الكثير والاختصار الذي يشكل معه وجه الكلام ومعناه ، كقوله سبحانه : ﴿ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ﴾ ثم لم يذكر جوابه ، وفي ذلك تبتير الكلام وإبطال فائدته ، كقوله سبحانه : ﴿ ۆ ۇ ۆ ۈ ۈ ﴾ (الزمر : 73) الآية ونظائرها :

ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف ، كقوله سبحانه في سورة الرحمن : ﴿ ه ه ه ه ﴾ وفي سورة المرسلات ﴿ ڀ ڀ ٺ ﴾ ، وليس واحد من المذهبين بالمحمود عند أهل اللسان ، ولا بالمعدود في النوع الأفضل من طبقات البيان) [2] .

رد الخطابي :

ذكر أن حذف ما يستغني عنه الكلام أو يدل عليه نوع من أنواع البلاغة ، بل إنه أبلغ من ذكره لأنه النفس تذهب في الحذف كل مذهب ، ولو ذكر لكان مقصوراً على الوجه الذي تتناوله الذكر .

فقال في حذف جواب (لو) في قوله تعالى : ﴿ ڃ ڃ چ چ .... ﴾ والمعنى الذي فيه جواب (لو) لكان هذا القرآن ، لأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به .

وكذلك المعنى في قوله سبحانه (حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها ...) والمعنى كأنه قيل : لما دخلوها حصلوا

(1) المرجع السابق ص (51) .
(2) المرجع السابق ص (39 ، 40) .

على النعيم المقيم الذي لانقطاع له ولا تكدير فيه فحذف كل توقع .

وبين أن التكرار كذلك على ضربين :

أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى عن الكلام الأول ، وليس في القرآن شيء منه .

والآخر بخلافه هذه الصفة ، وهو ما تدعو الحاجة إليه ويخشى من تركه وقوع الغلط والنسيان .

فقال في تكرار ﴿ ﻫ ﻫ ﻫ ﻫ ﴾ في سورة الرحمن : (أن الله سبحانه خاطب الثقلين وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ، فكلما ذكر فصلا من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهي أنواع مختلفة وفنون شتى .

وكذلك هو في سورة (المرسلات) ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أحوالها لتكون أبلغ في القرآن وأوكد لإقاة الحجة والإعذار ، ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة)[1].

وذكر أن الوعد والوعيد في ذلك سواء ، فقال : (والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتهما فإنهما متوازيان في موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي أنبأك كيف نعيمها)[2]

ثالثاً : شبهة الطاعنين في تبويب موضوعات القرآن ، ورد الخطابي عليها :

المنكر : (والأحسن أن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أبوابه ، وأن يكون لكل نوع منه حيزوقبيل لا يدخل في قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أخبار الأمم وأقصاصيهم في سورة ، والمواعظ والأمثال في سورة ، والأحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب ، وأعون على الحفظ ، وأدل على المراد ؛ في أمور غير هذه يكثر تعدادها)[3] .

رد الخطابي :

(إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أشياء مختلفة المعاني في السورة الواحدة وفي الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعمم لنفعه .

---

(1) المرجع السابق ص (53) .
(2) المرجع السابق ص (54) .
(3) المرجع السابق ص (40) .

ولو كان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ، ولكان الواحد من الكفار والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة به إلا في النوع الواحدة أوفر حظاً وأجدى نفعاً من التمييز والتفريد للمعنى الذي ذكرناه ، والله أعلم)[1] .

ونلحظ من هذه الشبهة وسابقاتها جهل الطاعنين بمبادئ البلاغة العربية وسننها في كلام العرب ، ولذلك كان منهج الخطابي في رد هذه الشبه بيان موضع البلاغة فيما أنكروه والاستشهاد على نظائرها من كلام العرب وبيان سنن العرب في كلامها .

رابعاً : شبهة الطاعنين باحتمال وقوع المعارض ولم تصلنا ، أو تحققها فيما نقل عن هرطقات مسيلمة وأساجيع المتنبين .

المنكر :

(فإن قيل ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ولكنه لم ينقل إلينا وغيّب عن ذكر ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع وسمه وامحى أثره)[2] .

رد الخطابي :

(هذا سؤال ساقط ، والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس خواصهم وعامتهم من نقل الأخبار ، والتحدث بالأمور التي لها شأن وبالنفوس تعلق ، ولها فيها وقع وذكر أنه لو جاز ذلك لجاز أن يخرج أنبياء بشرائع مخالفة لهذه الشريعة وكُتم الخبر فيها فلم يظهر ، وهذا مالا يتوهم)[3] .

– ثم قال : فإن قيل ما أنكرتم أن المعارضة قد حصلت منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآي من بعض السور القصار ، نحو ما حكى عن مسيلمة من قوله : (يا ضفدع نقى كم تنقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين) ، وكما حكى عن بعضهم (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، بين شراسيف وحشى) وكما قال آخر منهم (الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له مشغر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل) .

رد الخطابي :

(أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة ، لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ،

(1) المرجع السابق ص (54) .
(2) المرجع السابق ص (55) .
(3) المرجع السابق ص (55) .

ولا شيء من الشرائط الثلاث التي هي أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت اساجيعه واطردت .

وأما قول الآخر : الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، وقول صاحب (ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى .... فإن كان واحد من هذين الكلامين مع قصورا به وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا لن يبلغوا شاؤه أو يصيبوا في شيء من ذلك حذوه)[1] .

ثم أخذ يقنن لمعيار المعارضة وشروطها المعتبرة ليبين وهم المنكرين ويبطل زعمهم ، فقال : (وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشئ له كلاماً جديداً ، ويحدث له معنى بديعاً فيجاريه في لفظه ويباريه في معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر منهما على صاحبه .

وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسق منه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين وإنما المعارضة على أحد وجوه :

– منها أن يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه ، وبيان ما تباريا فيه ، يوازي بذلك صاحبه أو يزيد عليه ، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوي والتفاعل، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الغرس في قصيدتهما المشهورتين .

– وقد يتنازع الشاعران معنى واحداً غير نقي أحدهما إلى ذروته ويقصر شأو الآخر من مساواته في درجته ، كالأعشى والأخطل حين انتزعا في وصف الخمر على معنى واحد فكان لأحدهما العلو .

– وأبلغ منه في مذاهب المقابلات والمناقضات بناء الشيء وهدمه ، وتشييده ثم وضعه ونقضه .

– نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة ، وهو أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، فيكون أحدهما أبلغ في وصفه ما كان من باله من الآخر في نعت ماهو بآرائه .

قلت : وإذا أنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها ، وتبينت مذاهبها ووجوهها علمت أن القوم لم يضعوا في معارضة القرآن شيئاً)[2] .

8– من إعجاز القرآن تأثير في النفوس وصنيعه بالقلوب .

ذكر الخطابي أن هناك وجها غفل عنه الناس إلا القليل ، وهو أثر القرآن النفسي عند سماعه فتلين له القلوب وتقشعر الأبدان وتتغير المفاهيم ، فكم من عدو تحول عند عداوته عندما قرع القرآن سمعه ، وآمنت أمصار بالقرآن

(1) المرجع السابق ص (58) .
(2) المرجع السابق ص (58 إلى 66) .

لا بالسيف ، وأشاد به الجن والإنس عند سماعه ، فهدى الله به من كتب له الهداية[1] .

وهذا دليل نفسي لإعجاز القرآن لا تقتصر أسبابه على اللغة وحدها ولا يمكن قياسه أو تقنينه ، لأنه بأمر الله يهدي به من يشاء ويضل به من يشاء .

(1) المرجع السابق ص (70 - 71) .

الخاتمة : النتائج والتوصيات

أهم النتائج :

1 – وجود أصول المنهج العلمي الحديث في كتاب الخطابي المتوفى (388) إذ نجده وضع حدود البحث في كتابه وبين خطته التي سار عليها وألزم نفسه بالموضوعية والاستدلال لما يقول بالأدلة والبراهين الثابتة من ذاتها ، واعتمد على الاستقراء والتعمق والبحث عن العلل والأسباب ، والأخذ بالمطرد والمستقيم على القياس في كتابه .

وهو من الإحكام والظهور بمكان جعلنا نعقد الفصل الأول لبيان معالم المنهج العلمي في كتابه بيان إعجاز القرآن .

2 – العلاقة بين علوم العربية تكاملية مترابطة لا يمكن الفصل بينها في دراسة النصوص وتحليلها ونقدها .

3 – الإعجاز اللغوي في القرآن ناجم كما يقول الخطابي عن لغته اختيارات ألفاظه ومعانيه ونظمه مع ارتباطها ببلاغته التي حازت من كل قسم من أقسام الكلام المحمود بطرق فجمع بين العذوبة والفخامة وهما كالمتضادين لا يجتمعان في غير بلاغته .

4 – إنكار إعجاز القرآن أو الطعن فيه ناجم عن جهل بالعربية أو عداء للإسلام أو افتراض الاعتراض لبيان الإعجاز بالرد على الشبه .

5 – الحاجة إلى بيان إعجاز القرآن والرد على الشبه متجددة لا تقتصر على عصر معين ؛ لأن أعداء الإسلام يثيرون الشبه عبر العصور حول القرآن للصد عنه كما أن فساد الذوق اللغوي يؤدي إلى الجهل ببعض أساليب القرآن وتوهم الخلل أو عدم الدقة فيما يجهل منها .

6 – الاقتصار على بيان الإعجاز اللغوي لا يعني إهمال وجوه الإعجاز الأخرى ولكنه يهدف إلى إثبات عجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله لوجوده في كل سورة .

7 – توظيف السياق وأسباب النزول ضروري لبيان فصاحة ألفاظ القرآن ودلالاته .

8 – بيان سنن العرب في كلامها يرد على كثير من الشبه التي قد تثار حول فصاحة لغة القرآن واختياراته ، وهنا يجب على الباحث أن يفرق بين الاحتجاج بلغة القرآن والاحتجاج عليها ، وبينهما فرق كبير فبعض من قال بالصرفة دعاه إلى ذلك كون القرآن بلغة العرب فلم يرَ له مزيّة غير القول بالصرفة .